نشأة المتنبي

للأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار
ناظر مدرسة عثمان ماهر باشا
(والأستاذ بدار العلوم سابقا)

نسبه : اختلف النسابون فى نسبه ، فقيل هو أبو الطيب أحمد بن الحسين ابن الحسن بن عبد الصمد الجعفى الكندى الكوفى المعروف بالمتنبي الشاعر المشهور .

وقيل هو أحمد بن الحسين بن مرة بن عبد الجبار

لا أعلم فى شعراء الاسلام رجلا تناوله الناس من العلماء والأدباء بالتحليل لنفسه ، ونقد شعره وتقريظه ، كأبى الطيب المتنبى ، وأبى العلاء المعرى . وفى كل جيل تظهر لأهل الأدب مباحث فى نواحيه المختلفة ، وآراء ومذاهب فيه وفى شعره وفنونه التى طرقها وشهر بها . وقد مضى على وفاته ألف سنة ، والناس لم ينتهوا فى شأنه إلى أمر يحسن السكوت عليه . وسوف تمر الف سنة والف سنة وذكر المتنبى جديد ، والبحث فى نفسيته وعقليته وعواطفه وميوله وحكمته وشجاعته وغزارة علمه متواصل ومتدارك ، وسيسمع غيرنا بعدنا آراء أدباء زمنهم فيه وفى شئونه ونواحيه المختلفة ، بكيفية لم تطرق أسماعنا ولم يعرفها من قبلنا . فان الرجل بحق ترك فى الناس دويا هائلا كما قال

وَتَرْكُكَ فِى الدُّنْيَا دَوِيًّا كَأَنَّمَا تَدَاوَلُ سَمْعَ المرْءِ أَنْمُلُهُ الْعَشْرُ

وإنى لأرى من الأثرة أن ينفرد أبو العلاء المعرى بأن الناس يكررونه ليفهموه ، فقد شاركه فى هذا الوصف الذى يدل على العبقرية والنبوغ الفائقين أبو الطيب المتنبى إذ يقول المعرى :

يكررنى ليفهمنى رجال كما كررت معنى مستعادا

وعلى ذكر أن الناس يكررون المتنبي ليفهموه أقول: إني رأيت كتابة لأحد الأدباء وقد تكلم على ما ذكره بعض الشعراء في أبيات، من أن أبا المتنبي كان يبيع الماء في الكوفة، فوقف ذلك الأديب يتساءل، من أين جاءت للمتنبي هذه النزعة العالية، نزعة التطلع إلى الإمرة، وتبوء عرش الملك وقد نبت في بيئة وضيعة، وامتهن مهنة وضيعة، وهي بيع الماء، وليس من شأن من كان كذلك أن تنزع به همته إلى معالي الأمور؟ وإني أجيب ذلك الأديب الفاضل بما يأتي:

أولا: بأنه أخذ قول خصوم المتنبي حجة عليه وبرهانا ثابتا، لا يقبل النفي، دون أن يقدم ذلك الهاجي، أية حجة على ما رمى به المتنبي، من أن أباه كان يبيع في الكوفة الماء؛ فكان من حقه أن يثبت قبل أن يقطع.

ثانيا: أني لا أرى ما رأى، من أن بيع الماء أمارة من أمارات المهانة؛ فقد يكون احتراف بيع الماء إنما نشأ عن نزعة كبرياء، وعلو في النفس، عزفت به عن الوقوف موقف الذلة، يسأل كريما أو بخيلا يعطي أو يمنع. وقد تذكرت (والشيء بالشيء يذكر): أنه كان يوجد في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، رجل يسن السكاكين والمقاص بالأجر، على مسن له؛ وكان اسمه عبد المجيد السنان؛ وكان الرجل إذا فرغ من عمله، وحصل رزقه، يخلع ملابس الاعتمال، ويلبس عمامة عراقية، وملابس تشبه ملابس العلماء في اسطنبول، ويجالس العلماء الفضلاء، ويباحثهم في بعض مباحث علم الكلام، ويظهر بمظهر المتفوق الفالج بالحجة. فوقع إلى المنصورة واتصل بمفتيها، الشيخ محمد راضي الكبير، وكان عالما فاضلا، ووُجد السنان في مجلس لمدير الدقهلية، المرحوم خليل عفت باشا. فقال له الباشا: إذا كنت على شيء من العلم، فلماذا تحترف حرفة سن السكاكين، وهي حرفة حقيرة؟ فقال له: إني بهذه الحرفة أكسب عيشي بعمل يدي؛ وأكرم نفسي عن أن أقف ببابك، أو بباب غيرك سائلا، فيعطيني أو يردني.

وغضب الباشا على المفتي، لانصاره لهذا الرجل؛ فكتب إلى نظارة الحقانية أن المفتي يروج آراء رجل زنديق، ينشر الإلحاد في مديرية الدقهلية؛ فما كان من نظارة الحقانية إلا أن رفتت المفتي، دون تحقيق ولا تبين، وجاء المفتي وقابل ذوي

الحل والعقد ، فعين مدرسا فى الأزهر ، وعرف له القائمون على الأزهر فضله ، وأجرى عليه مالا ينقص عن مرتبه الذى كان يتقاضاه ، وقد كتب الشيخ السمهودى من علماء المنصورة كتابا كبيرا فى التشنيع على الرجل السنان ، وعلى المفتى ، انتصاراً لخليل عفت باشا .

وشاهدى فى ذلك ، جواب عبد المجيد السنان لعفت باشا ، فليس احتراف الحرفة التى يعتبرها الناس مهينة بالدال على هوان محترفها ، ولا بالذى يطفىء نزوات النفس إلى معالى الأمور - وقد كان كناس يكنس الشوارع وينفى عنها الأذى وينشد .

وأكرم نفسى ؛ إننى إن أهنتها وحقك - لم تكرم على أحد بعدى

فسمعه إنسان فقال : له الويل ؛ وأى هوان تكرم نفسك عنه ، وأنت على هذه الحال ؟ فقال له الكناس : أكرمها عن الوقوف على باب بخيل مثلك .

وبعد هذا . فان أبا الطيب قد أجاب ذلك الأديب بقوله :

وَكَمْ مِنْ غُلَامٍ عَلَّمَ المجدَ نفسَهُ ! كَتَعْلِيمِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الطَّعْنَ وَالضَّرْبَا

من قصيدته التى مطلعها :

فَدَيْنَاكَ مِنْ رَبْعٍ ، وَإِنْ زِدْتَنَا كَرْبَا

فَإِنَّكَ كُنْتَ الشَّرْقَ لِلشَّمْسِ وَالْغَرْبَا

نشأ المتنبى بالكوفة ، وقدم الشام فى صباه ، واشتغل بفنون الأدب ومهر فيها ، وكان من المكثرين من نقل اللغة ، والمطلعين على غريبها وحوشيها ؛ لا يسأل عن شىء إلا استشهد عليه بكلام العرب من النظم والنثر ؛ حتى قيل إن الشيخ أبا على الفارسى ، صاحب الايضاح والتكملة ، قال له يوما : كم لنا من الجموع على وزن فِعلى ؟ فقال المتنبى فى الحال : حجلى ، وظربى . قال الشيخ أبو على : فطالعت كتب اللغة ثلاث ليال على أن أجد لهذين الجمعين ثالثا فلم أجد .

كان المتنبى خصب الذهن ، سريع الخاطر ، جزل الألفاظ ، غواصا على المعانى ،

والحكم، ينظمها ويسيرها فى الناس؛ وغزله جيد على قلته؛ أما وصفه للأشياء الطبيعية أو المرئية والابل والصحارى والجبال والحرب والطعان، فيأتى من وراء الغاية

كان المتنبى متبرما بالزمن الذى لم يساعفه على بلوغ مراده، وبملوك زمانه؛ لأنه كان يراهم دونه فى الفهم والعلم وسائر المواهب التى تكون بها السيادة، وقد تبنكوا فى العروش، وعصبت برءوسهم التيجان، وأطلقت أيديهم فى الأموال التى يجبونها من الرعية، ويده صفر من كل ما أوتوا؛ وكان متأففا من شعراء دهره الذين يحقدون عليه، ويغمطونه حقه، ويذمونه بألوان المذام، ويحقرون أصله، وهو تارة يحقر شأنهم ويلغى ذكرهم (كما ألغيت فى الدية الحوارا) وتارة يسم آنافهم بهجوه، ولا ينظر إليهم إلا من عل.

فمن قوله فى شعراء دهره:

أَرَى المُتَشَاعِرِينَ غَرُوا بِذَمِّى ... وَمَنْ ذَا يَحْمَدُ الدَّاءَ العُضَالاَ ؟

وقوله: —

خَلِيلَيَّ إِنِّى لاَ أَرَى غَيْرَ شَاعِرٍ ... فَلَمْ مِنْهُمُ الدَّعْوَى وَمِنِّى القَصَائِدُ ؟

فَلاَ تَعْجَبَا، إِنَّ السُّيُوفَ كَثِيرَةٌ ... وَلَكِنَّ سيفَ الدَّوْلَةِ اليَوْمَ وَاحِدُ

ومن قوله فى حساده:

أَزِلْ حَسَدَ الحُسَّادِ عَنِّى بِكَبْتِهِمْ ... فَأَنْتَ الَّذِى صَيَّرْتَهُمْ لِىَ حُسَّدَا

وقوله:

بَلَغْتُ بِسيفِ الدَّوْلَةِ النُّورِ رُتْبَةً ... أَثَرْتُ بِهَا مَا بَيْنَ غَرْبٍ وَمَشْرِقِ

إِذَا شَاءَ أَنْ يَلْهُو بِلِحْيَةِ أَحْمَقٍ ... أَرَاهُ غُبَارِى، ثُمَّ قَالَ لَهُ: الْحَقِ

وَمَا كَمَدُ الحُسَّادِ شَيْئًا قَصَدْتُهُ ... وَلَكِنَّهُ مَنْ يَزْحَمِ البَحْرَ يَغْرَقِ

وقوله:

وَمَا لِكَلاَمِ النَّاسِ فِيمَا يَرِيبُنِى ... أُصُولٌ، وَلاَ لِلْقَائِلِيهِ أُصُولُ

أُعَادَى عَلَى مَا يُوجِبُ الحُبَّ للفتى وَأَهْدأُ ، والأفكارُ فِيَّ تجولُ

وقوله :

أَفِي كُلِّ يومٍ تَحْتَ ضِبْنِي شُوَيْعِرٌ ضَعِيفٌ يُقَاوِيني ، قَصِيرٌ يُطَاوِلُ ؟

لِسَانِي بِنُطْقِي صَامِتٌ عَنْهُ عَادِلٌ وَقَلبي بِصَمْتِي ضَاحِكٌ مِنْهُ هَازِلُ

وَأَتْعَبُ مَنْ نَادَاكَ مَنْ لاَ تُجِيبُهُ وَأَغْيَظُ مَنْ عَادَاكَ مَنْ لا تُشَاكِلُ

والذى يدل على قدر المتنبي وفضله ، وبلوغه الغاية التى لا يدانيه فيها أحد من خصومه (مهما علوا وكرموا) ممن عاصروه أوعاشوا بعده إلى يومنا الحاضر ـ أنهم وسموه بكل أنواع العيوب ، ونسبوا إليه ما قدروا عليه من التيه والكبر ، والبخل والحرص على المال ، وضعة الأصل ، والتقلب فى المبادىء والأخلاق . ومع ذلك كله ، لم تنس الأيام الناس ذكره ، ولم تمنع الأدباء من التمثل بأبياته ، والاستشهاد بما سير فى الناس من أمثال ، وما أشاعه فيهم من الحكم الغالية ، والنصائح العالية ، وشعره فى المدح والقدح سلوة كل منشد ، وأغنية كل غريد مردد . فهو جديد على مرور الأيام ، وكرور الأعوام ، لم تبل الأيام جدته ، ولم تخلق ديباجته ،

ولم يزل الناس ، يفتخر الواحد منهم ، بأن يقول : قال أبو الطيب كذا ، أو قال المتنبي كذا ، ويأتى بالدرر اليتيمة من أقواله ، يفصل بها عقود مدحه أو قدحه . ولا نجد أحدا يقول : قال شيوخ ابن خلدون ، أو قال فلان أوفلان من خصومه والشانئين له ، والزارين عليه من أهل جيله أو من بعدهم .

ولقد أدركنا المرحوم الشيخ احمد أبو القزح ، شاعر دمنهور فى القرن التاسع عشر ، وهو إذا نظم شطر بيت أعجبه معناه أو بيتا راقه حسنه ، قام واقفا متبخترا وهو يقول : والله ما قال مثله المتنبي ، وهو لا يأبه لغيره ، ولا يجرى لسانه بذكر أحد من حساد المتنبي والحاقدين عليه إهانة لهم ، وتنزيها لشعره أن يقاس بشعر أحد سواه .

وأما قوله فى الملوك و تكبره عليهم ، فقد جاء فى ذلك قوله :

وَجَنَّبَنِي قُرْبَ السَّلَاطِينِ مَقْتُهَا وَمَا يَقْتَضِينِي مِنْ جَمَاجِمِهَا النَّسْرُ
وَإِنِّي رَأَيْتُ الضُّرَّ أَحْسَنَ مَنْظَرًا وَأَهْوَنَ مِنْ مَرْآى صَغِيرٍ بِهِ كِبْرُ

وقوله :

مِيعَادُ كُلِّ رَقِيقِ الشَّفْرَتَيْنِ غَدًا وَمَنْ عَصَى مِنْ مُلُوكِ الْعُرْبِ وَالْعَجَمِ

وقوله :

فَلَا تَحْسَبَنَّ الْمَجْدَ زِقًّا وَقَيْنَةً فَمَا الْمَجْدُ إِلَّا السَّيْفُ وَالْفَتْكَةُ الْبِكْرُ
وَتَضْرِيبُ أَعْنَاقِ الْمُلُوكِ وَأَنْ تُرَى لَكَ الْهَبَوَاتُ السُّودُ، وَالْعَسْكَرُ الْمَجْرُ

وقوله :

وَإِنَّمَا النَّاسُ بِالْمُلُوكِ ؛ وَمَا تَفْلِحُ عُرْبٌ مُلُوكُهَا عَجَمُ
لَا أَدَبٌ عِنْدَهُمْ وَلَا حَسَبٌ وَلَا عُهُودٌ لَهُمْ وَلَا ذِمَمُ

ولقد علم الخاص والعام ، أن أبا الطيب كان متقلبا فى أخلاقه ، لا يصبر على طعام واحد ، ولا يتحاشى أن يذم بعد مدح ، وأن يطرى بعد قدح ، ولكن هل كل ذلكم يصرف وجوه الناس عن شىء مما فى قوله من الأدب؟ لا ، بل كان كل ذلك حاديا للناس على التقاط الحكمة من أصداف أقواله ، مغريا لهم بالازدياد من النهل من معينه ، والاعجاب بما تضمنه قوله من صنوف الأغراض فى كل باب : يشهدون له بالبراعة فى كل باب طرقه . وأما الناظرون إلى الأخلاق النفسية والفضائل المكتسبة والفطرية ، فقليلون فى جنب من يعجبون بأقواله على أى حال صدرت ، وفى أى غرض وردت .

عبد الوهاب النجار